جذور تقف المقطم

بيير لوتي

وناجية من ذكرياته

ليوسف العيني

لمن

لمصر أبو ريشة

المرسى الأسود

لفؤاد سليمان

بيير لوتي

وناحية من ذكرياته

في أوائل الجيل الماضي نشطت في فرنسا نزعة الى الاصلاح والتجديد، فكان لها أثر متين لا يمحوه الدهر ولا يأتي عليه النسيان. ومن نتائج ذلك الأثر البليغ ظهور المذهب الوجداني الذي طوّق جيد الادب العالمي بقلائد الفن والنبوغ والعبقرية

ولم تكد شمس ذاك الجيل تدرج من خدرها الأزلي وتنير الحياة والأنظمة والقوانين بفيض من التطور والتجديد، حتى استيقظ نفر من هؤلاء المجددين واتجه نحو الشرق منقباً عن الجمال الكامن وراء أكمته وجباله، والسحر المهوّم بين أوديته ووهاده

وكان بين هؤلاء المجددين رجل حساس تغلّبت عليه عاطفته وإحساساته، فجاء الشرق ليعالج تحت ظلاله الظليلة تلك العاطفة الحرساء.. هذا الرجل هو — بيير لوتي — الكاتب الفرنسي الأنيق الذي عشق الشرق وأفسح له مجالاً رحباً في كتاباته وأقواله

وقف — لوتي — في ظلال الشرق تكشف له خياله الناعم الخصيب عن ذلك الجمال المتجسم في كل مرتبة من مراتب الطبيعة. ولذلك أكثر من وصف السماء الزرقاء، ومطلع الفجر، ومغيب الشمس، ومن البلابل الشاردة بين الحقول والبطاح، والجداول الهائمة في الأودية والوهاد، والأنهر الجارية الى أعماق البحار، والأنين الشجي الموجع المؤلم على أوتار الرياح والعواصف

إن في الشرق جمالاً علوياً كجمال المآسي الخالدة.. ومن الروعة والجلال ان يتسنى ذلك الجمال في روح — لوتي — فيجعله يتمم اسم الشرق في الحياة وعند الممات !!

***

وبعد... لقد عرف الشرق نفر من أدباء الغرب وكتّابه، ولكن هؤلاء

الكتّاب ، عمدوا ان صوّروا أخلاقهُ وعاداته وستاريهُ صورةً متماثلة لا أثر للفن و لحقيقة فيها . فسخوا من جماله ما استطاعوا إما عن تعصّب شائن ، وإما عن تجاهل لهم منهُ فائدة معنويّة . أما — بيير لوتي — فقد خالف هؤلاء جميعهم اذ تغلغل في روح الشرق ودرس شعوره وعواطفه ثم تحدّث عنهُ حديثاً مترعاً بخبرة الحبّ والصدق والاخلاص

ولأجل ذلك أعدّوا لوتي صديقاً مخلصاً للشرق . .

والذي نعجب لهُ كثيراً هو درسهُ للحياة الشرقية . حتى لقد يُخيّل إلينا ان الرجل أمعن في الاستيلاء على عناصر تلك الحياة مما في هذا من جهد وعناء قبل أن يُقدم على تصويرها ذاك التصوير الساحر الذي يخلب القلوب

فان من يقرأ كتابه (موت آلس الوجود) يشعر بحقيقة ما أكتب قال في فصل من فصول الكتاب :

« بين الفتيان المصريين من يفتك بذكائه ونبوغه ، عرفت ذلك بعد ما وطأت قدماي تربة مصر الفوّاحة بالشذا والعبير . ولأجل هذا أريدُ أن أخاطب هؤلاء الفتيان بعطف متناهٍ فاهتف بهم قائلاً : أيها الفتيان ، ان المدنيّة ستمشي في عاداتكم عما قريب ولكن حذار أن يعبث بأخلاقكم عابثٌ ، تلك الاخلاق التي اذكرها بتهيب وافتخار »

على إنّ السرّ المنوي في عبقرية هذا الكاتب العليل المفلّي قلبهُ بأنامل اليأس العميق والألم المحرق المذيب ، هو حبُّهُ لتركيا حبًّا قارب العبادة والتأليه

لقد تساءل نفرٌ من الكتّاب الفرنسيين هل كان هذا الكاتب الرسام قد وقف على اسرار الحياة التركية التي لم يقف عليها اديبٌ من الادباء . اما الحقيقة فهي انهُ توفّق الى رسم تلك الحياة التي تجري في القصور التركية رسماً لا شكّ حياله بتدخله في شؤون هذه القصور المسربة بضباب الاحلام

في تركيا ، عشيقة البوسفور وموحية أسرار الحبّ والغرام للقلوب التوّاقة الى نور الخلود ، جمال يترك في النفوس نشوةً علوية كنشوة الوردة الحمراء النافية على سرير من ضياء الفجر . والفرنسيون بارعون في الاستيلاء على كلّ ما يمتّ الى الفنّ بقرابة جيّدة . ولكن الاجمل من هذا ومن ذاك هو تلك الذكريات التي تركها —

لوتي — لتبقى مثالاً صادقاً للحياة التركية بما فيها من آلام وسرات ، وسعادة وكآبة ، وابتسامات ودموع !!

لقد نزل بيير لوتي — عقوداً جمة من حياته على شواطىء البوسفور التركي ، ومتّع عينيه بمنظر الخليج الجميل ، وبمرأى البدر يصبُّ أنواره الفضية فوق موجه الثمل الريان ، وأمرع كثيراً بمسرة تلك الليالي البيضاء التي تغبُّ في النفوس رواقد الخشوع والروعة والتعبد . . . فلا عجب اذا اغرق — لوتي — بحبّ المرأة التركية ووصف اخلاقها وعاداتها وبكيفية معيشتها بين جدران القصور التركية ؛ واذا اكبرت عليه جمال فنه وأنيق الوانه ، فاعلم انهُ طلى فنهُ بكل ما في الحياة من أدهنة سحرية ورموز واسرار ... وما اعظم الاديب الذي يجمع بين الفن والجمال !

***

وهنا يلوح لي ان فريقاً من القراء يطالبني بذكر ناحية من ذكرياته .. اما ذلك فحسبي ان اقاول روايته (اليانسات) واقرأ فيها هذه الجمل الحزينة اللابسة ثوب الحداد على ماضٍ حنون توطّن بقبرة الذكرى وترك في قلب الكاتب اللطيف هذه الغصة المؤثرة الموجعة

« . . . في ناحية منفردة على شواطىء البوسفور ، وعلى نحو فرسخين من استانبول المدينة الشعرية المتعالية ماذنها في الفضاء معلنة لروح اللانهاية كل ما للدين الاسلامي من روعة واسرار ، كنت اصرف اكثر اوقاتي مع « جنان » فلا يعلم بنا احد ، ولا يسمع نبضات قلبينا غير الامواج والطيور

« أنا لم يؤثر فيّ مشهد من مشاهد الشرق الغريب مثل ان اتأمل البوسفور في ساعة المغيب وقد تلوّنت شواطئهُ بأشعة شمس الخريف الواهية ... فكانت تبدو لعينيّ كانها وجنات العاشقين منتفعةً بصفرة الفراق !

« وما — البوسفور — يبعثر امواجه على صخور الشاطىء غير مشهد يروعك فيه انين المياه وحفيف تيرها البليل يداعبهُ نسيم المساء ثم يرخيه فوق الحصى والاعشاب ، ولكنهُ مشهد خفاق تنشى في روحه الروح والحياة ، فهو جميعهُ خفقات ألمية تهرب عما تعاني من صبابة . . . وكل موجةٍ لها للفؤاد إشارات خفية مجهولة ، هي اشبه بيد العاشقة تمتدّ مودّعةً بعد ان تقاصرتْ عن عناق الحبيب !

« اما الطيور الهادية ثمة وريانة في تلك الامكنة اللطيفة الساحرة ، فكنت اخصها بكثير من تأملاتي واحلامي . وكانت — جنان — تحسبها ارواح اليائسات التركيات اللواتي استقرّ من قصور ازواجهن البشوات الظالمين

« وفي اواخر — جمادى الاول — عند حلول الخريف ، كان يحزنني ان ارى تلك الاماكن الشاهدة عليّ وعلى « جنان » بما يفنا من احايين شيقة خيّمت فوقها اشباحُ الغرام . . . ثم كان يمضّني ان اراها عاريةً جرداء فينبثق منظرها الشاحب بنكهة غريبة تتكوّن من ياط فؤادي فتسحقها بالالم سحقاً ، وتفصدها بغزوات دامية تمازجُ فيها نبرات الحزن واصداء الموت

« وأحستْ — جنان — ذات يوم بما يخالجني من ألم مبرح يُسمم عواطفي فأخبرتها ان طيفاً خفيًّا ينصب في اعماق نفسي منذراً بمجيء ساعة الفراق ، فارتمت — جنان — يتنكّب الاين فؤادها ، وتستشفُّ عينيها الدموع ! !

« وشئتُ ان أساعدها على احتمال هذه الصدمة الشيقة فوعدتها ان اعود اليها واماضي باقي الحياة قريباً منها . ولكني عندما شاهدتُ ارتعاشها المفجع لم أتمالك عن ذرف دموعي فعانقت جنان وبكينا معاً امام الامواج المحتضرة والبلابل المرتحلة الى الجنوب هرباً من عواصف الشتاء المتأهبة للخروج من سجن الابدية

« وعدنا الى اسطنبول مساء . . . ولأول مرة رأيتُ — جنان — تتأملُ القمر بعينين منهوكتين ، فظننتُ انها تريد التعبير عما في نظرات القمر من سهدٍ ووجوم ، فضممتها الى صدري المعذّب وأشبعتها بقبلات الوداع ! !

* * *

بعد ان مضى زمنٌ طويل على هذا الافتراق جمع — بيير لوتي — تذكاراته الماضية ودوّنها كلها في روايته المسماة (اليائسات) والغريب انهُ اعلن موتَ جنان في آخر الرواية بصورة شعرية مؤثرة . ولكن الحقيقة — كما تقول مجلة الالبستراسيون — ان جنان ظلت حيّة ومقيمة طول ايامها على غرام الكاتب البحري الجليل

وقد وجدوا بين اوراقه بعد موته تذكارات جمة عن — البوسفور — مرسومة بدم قلبه ودموع عينيه ، وكلها تعبر عن نواحي حياته ؛ فاليك هذه الكلمة المختصرة :

« لست أنسى ما حييت تلك الليالي البيضاء التي صرفتها على ضفاف بحر مرمرا » والبدر يحدّق بالامواج كأنهُ يبثها سرًّا من الاسرار او لاعجة من لواعج الهوى .

وكثيراً ما حركت هذه المناظر بواعث الحزن والكآبة في اطواء نفسي ، فكنتُ اسمع انغام الماضي توقعها الذكرى على أوتار الليل

«آهٍ ما أعذب الذكرى تعاودني من خلال خمائل الماضي . . . ولكن وا أسفاه انّ عيني يكاد يغشاها ظلامُ الموت . اني اراك يا — فروق — تموجين بثوبك الخفاق كانك في ساعة عرسك . فسلامٌ عليك من رجل أحبك حتى العبادة والتأليه »

يقول — كاوه كارير — الكاتب العبقري الكبير ان — بيير لوتي — ارسل هذه الالفاظ النارية وهو ممدد على سريره في باريس يعالج برجاء الألم ويتلمس مهاوي الابدية . وكانّ الاقدار شاءتْ ان تضرم لوعته وتشعله بالكآبة التي لازمتهُ طول حياته ، فقد أطفأت حياة حبيبته (جنان) في ليلةٍ من تلك الليالي السوداء التي كانتْ تمرّ بالكاتب الملول الحزين

ولكن جنان المسكينة لم تكن تعلم وهي تنثر احلامها في ظلام أجنحة المنيّة الا" بذلك الفرنسي الجميل الذي أحبتهُ كما احبّها حبًّا وفيًّا . فتناولت القلم ورسمت هذه الرسالة

«ايها الحبيب — ها انذا في مخدعي سهّدة تولولُ اشباح الماضي في اودية الفؤاد وبينما الناس نيامٌ يرتشفون خمرة الرقاد ، أبيتُ باكيةً تلك الاوقات الحبيبة التي مضتْ وتركتْ في مقبرة قلبي تذكاراً حنوناً مندّى بالدموع ! نعم . . . لقد تلاشتْ تلك الاوقات وتوارت وراء نقاب الموت لتُبلى على مهلٍ تحت اقدام الدهور . . . ولكن نور النجوم ، وحفيف الاوراق ، وخرير الجداول . . . وكل ما في الطبيعة من حسن وجمال . . . لا يزالُ يتغنّم على اوتار صدري توجيعة الصمت والسكينة

«انّ ضباب المنيّة يكفنني الآن بردائه الناعم الشفاف . وعندما تخمدُ فيّ شعلة الحياة ويسيلُ الموت اجفانه فوق نعشي ، ثم يدنو حفار القبور ليميل على صدري التراب . . . ستحومُ حولك روحي ايها الحبيب وتتلو على مسامعك كلّ نزعات القلب وأمانيه .

«زهرة البنفسج التي كنا نستنشق عبيرها ونضفر اوراقها على ضفة — البوسفور — أغرسها ايها الحبيب فوق قبري لتعطر جسدي الناضر في سكينة الليل . . وعلى اضواء النجوم ! !

— جنان —

مسكينة جنان . . . كانت أمنيتها الوحيدة ان ترى — بيير لوتي — وتسامحه الى الاخير في تلك الساعات الاليمة التي تكابد حزازتها في ظلام ليل تذكاراتها . وفيما هي

تستنشف كأس المنية تركت هذه الرسالة المخددة بالدموع (وهي مترجمة عن اليابانية)

« أندري ! : الآن وقد مرّ الهزيع الثاني من الليل ، اصغي الى حفيف اجنحة الموت فلا اسمع سوى زفرات متقطعة ترسلها روحي المفارقة في فضاء مخدعي . قليلة كنتَ هنا يا أندري ! لأهمس في اذنك كلمة الوداع فلماذا لا تقترب مني ايها الحبيب لابوح لك بسرٍّ من اسراري الدفينة ... اريد ان اعترف لك بحبي الذي لا شائبة به. إنّ من تفارق الحياة لأجل حبيبها تستطيع الاعتراف بخفاياها

« آهٍ يا أندري . . اتذكرُ يومَ كنتَ في هذا المكان حيث أنا الآن ؟ يومَ ذاك خفق قلبي بحبك ، الا اني أطبقت عيَّ لأحلم وهكذا مرتْ احلامٌ لذيذة ... وكانت يدي تمسح عن عينيك تلك العبرات المتسلسلة . حبذا لو قضيتُ في تلك الساعة اذاً ما كنتُ تمكنتُ اشباحُ الحزن الظالمة . وكأس الغرام المريرة !

« كل شيء يتغير في نظري... قالوا لي ان الأيام تسكن لا اشعر بالعكس يزداد أحياناً . . . غير اني اشاهد كل ما في مخدعي يهتز ويرتعش مثل شعلة روحي الذابلة ... إن الزهور البيضاء التي تنثرها حول رأسي أتخيلها تنمو وتتكاثر متحولة الى مرجة كبرى مكتسية بالورود والبراعم

« والآن اراك تلهو بين الورود والبراعم فلماذا لا تقترب مني ايها الحبيب ؟ ألا تعلم انّ شفتي تحبان ان تلثما شفتيك ؟ وهنا حيث احتضر اودُّ كثيراً لو شاهدتك لاقرأ في عينيك دمعةً تذيبُها لاجلي... تعالَ يا ملكَ الجمال ومرقظَ الحبّ والغرام لأسند رأسي الى ذراعك واعترف لك بحبي قبل ان يطفىء الموت شعلة حياتي

« آهٍ يا أندري ! ! إن الاموات يجذبونني نحوهم بعنف وقسوة . فاعطني يدك لأتساند عليها في المصرع الاخير !

ومثل الزهرة الرطبة التي تنتعش صباحاً ثم تذوى في المساء بعد ان تلفحها الشمس بنورها الكاوي هكذا ذوت مباهج الحياة في قلب (أندري) وهو يبر لوتي نفسه . وظلت هذه الذكرى جاثمةً حول الكاتب الحساس حتى لفظ أنفاسه الاخيرة

فالى بير لوتي والى روحه العذبة التي ابتسمت في ثنايا هذا كواكبُ الفن والنبوغ سلامُ الشرق العظيم الذي ضمّتهُ اليه وسكب في عروقه كل ما في الحياة من تشوّق وحرارة وايمان

البرازيل يوسف البعيني